مصادر العلوم فى القرآن الكريم

أ. د. حسن الشرقاوى

أستاذ ورئيس قسم الفلسفة – جامعة الإسكندرية

مصادر العلوم فى القرآن الكريم

لم يعطل الدين الإسلامى العلم ، وإنما على العكس من ذلك تماماً أيد العلم فى كل مناحيه ، والآيات القرآنية شاهدة على ذلك ، إذ تخلق المناخ المناسب للروح العلمية ، وتشجع النفس المؤمنة للبحث والدرس والتأمل ، وتطلق العنان لتقبل العلم من ناحية ، ولتبليغه وتطبيقه من ناحية أخرى .

ومن جانب آخر فإن العلم يشهد أن الوحى حق ، وأن القرآن الكريم هدى للعقل وآياته تحض على تدعيم الملاحظة والمشاهدة والتجربة العلمية .

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات ﴾ [سورة المجادلة آية ١١] فهناك انسجام بين الإيمان والعلم فكل يدعم الآخر ، ولا سبيل فى النظرة الإسلامية إلى القول بانفصال العلم عن الدين ، وهذا وارد فى كلام الله الذى لا تبديل لكلماته ولا تحويل :

﴿ وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان ﴾ [سورة الروم آية ٥٦] ولقد عاون ذلك التزاوج بين الإيمان والعلم على ظهور المنهج التجريبى لدى المسلمين وقد عمل المسلمون على الاعتماد على التأمل والتجربة والقياس مقتدين بِحَثّ القرآن لهم على استخدام أدوات المعرفة التى هُيِّئت للإنسان من عقل وحواس :

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ [سورة الاسراء آية ٣٦] .

وبهذا يكون الإنسان مسئولاً بالكلية ، إذ عليه أن يستخدم أدوات المعرفة التى خصه الله بها من سمع وبصر وذوق ولا يجوز أن يتصرف بغير علم أو يجنح عقله ويتبع غيره فى عقائدهم وآرائهم أو علمهم بغير علم أو هدى ...

يقول المفكر فردريك البرت سانج[1] :

« إن العرب ينبغى أن يعدوا المؤسسين الحقيقين للعلوم الفيزيائية بالمعنى الذى نعنيه اليوم باستخدام هذا اللفظ ، فالتجربة والقياس هما الأداتان الهائلتان اللتان استخدمهما العرب وشقا

بهما طريق التقدم ، وبذلك ارتفعوا إلى مكانة تقع بين ما أنجزه اليونان فى فترتهم الاستقرائية القصيرة ، وما أنجزته العلوم الطبيعية فى العصر الحديث .

وإذا كان القرآن الكريم لم يأت بطريق مباشر ليعلم الجبر والحساب العشرى وهما العلمان اللذان ابتكرهما العرب ولولاهما لم يصل التقدم التكنولوجى الحديث إلى ما وصل إليه ، إذا كان القرآن الكريم لم يأت بهذين العلمين بطريق مباشر ، إلا أنه أتى بالمناخ العقلى الجديد الذى أتاح للعلم أن يتطور هذا التطور .

وكما سبقت الإشارة إلى أن هناك آيات كثيرة تحث على طلب العلم والتعلم[2] ومعرفة الحق والحقيقة ، ولقد وردت كلمة « علم » ومشتقاتها فى القرآن الكريم ما يزيد على سبعمائة وثمانين مرة وهذا يدل على اهتمام بالغ بالعلم نظراً لأن العلماء هم الخاشعون لله :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [سورة فاطر آية ٢٨] .

والعلم بهذا المعنى هو العلم بالشىء كثمرة للخبرة ومعرفة الشىء هو الوقوف على خصائصه وهو فى الاصطلاح مجموعة من الحقائق المصنفة والمحققة فى فرع من فروع المعرفة .

وقد فهم العلماء المسلمون هذا المعنى للعلم ، ذلك وقد قدموا للإنسانية تراثاً علمياً فاخراً – إبان ازدهار الحضارة الإسلامية – مؤسسا على المشاهدة والاستقراء والتحقيق والتصنيف .

وقد تسلمت أوروبا هذا التراث الإسلامى العظيم وسارت عليه وهى تحمله فى دقة وحرص شديدين حتى أنتجت بفضله هذا التقدم المادى الهائل واستطاعت أخيراً أن تهبط على سطح القمر لأول مرة فى التاريخ عام ١٩٦٩ .

لكن برغم هذا التقدم الذى يؤسس على تطبيق النظريات العلمية فى المجالات المختلفة فإن هذه النظريات تحتاج دائماً إلى مراجعة مستمرة والموقف العلمى يقتضى الاستعداد الذهنى لذلك .

وكما تعلمنا من أساتذتنا قولهم : « النظريات العلمية صحيحة ما لم يثبت لدينا أنها خطأ » .

ولكى نفسر هذا القول فإنه يتوجب علينا أن نعلم أن المنهج التجريبى الذى بمقتضاه نصل إلى النظرية العلمية ، هذا المنهج يعتمد أولاً وأخيراً على التجربة والقياس بمعنى أن أحكامه تستقى من الإدراك الحسى والإدراك العقلى مادتها ومعلوماتها ، فإذا أخذت هذه المعلومات بجهل أو بهوى أو عن طريق الوهم أو الظن فلن يتوافر لها الصدق وبذلك تخطىء وتصيب .

ومن ثم فإن النظريات العلمية الحديثة ليست خلقاً من عدم – كما يزعم الماديون – ولا هى إبداعاً مفرداً – كما يدعى أصحاب الحس – إنما هى كشف للأشياء الخفية فى الكون واستجلاء للعلاقات الغامضة فى السنن والناموس الإلهى ..

ولا يزيد البحث والتأمل فى هذه السنن عن كونه تجارب يجريها الباحث على المواد المتاحة ،ومحاولة لإيجاد العلاقة بين هذه المواد مستهدفاً الإفادة منها فى حقل من حقول المعرفة .

والتجارب معرضة للفشل كما أنها يمكن أن تنجح أيضاً ، لكن الاقتصار على هذا النوع من المعرفة ألا وهى المعرفة التجريبية دون المعارف الأخرى التى تعتمد على منهج علمى يخالف ما يراه الغربيون المحدثون ، وأن الاقتصار على هذا المنهج يعوق مسيرة التقدم الإنسانى ، حيث ينجح فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية والتطبيقية ، ويفشل تماماً فيما يتعلق بالعلوم الحياتية فضلاً عن الدين والإيمان . لذلك فإننا نطرح بعض المعارف على سبيل التمثيل لا للحصر منها[٣].

(١) المعرفة الباطنية والمعرفة العقلية .
(٢) المعرفة التجريبية والمعرفة التصورية .
(٣) المعرفة الإيجابية والمعرفة النظرية .
(٤) المعرفة الحدسية والمعرفة التأملية .
(٥) المعرفة الرمزية والمعرفة الصحيحة .
(٦) المعرفة الجماعية والمعرفة الفردية .

وجملة تلكم المعارف تسعى إلى خدمة الإنسان عقلياً وروحياً ومادياً وسلوكياً ، إذ تمكنه علاوة على غزو الطبيعة واستجلاء غوامضها فضلاً عن إقرار الحقائق التى يجدر بالإنسان أن يصدق بها ويسلك طريقه بلا تردد وفق مبادئها .

والمعرفة فى النظرة الإسلامية مقترنة تماماً بالإيمان والعمل ، فإذا كان العمل سعياً وسلوكاً وتطبيقاً للإمكانيات المتاحة ، فإن الإيمان إذعان للحقائق واعتراف بها فهو إصرار وإقرار

واقتناع وتصديق .. ومن هنا كان العمل والإيمان مرتبطين تمام الارتباط بالمعرفة فكلاهما هدف من أهدافها إذ تحتاج المعرفة دوماً إلى اليقين وتجده فى الإيمان ثم إنها تحتاج دائماً إلى الكسب والفاعلية واستغلال الإمكانيات وهذا تجده فى العمل .

وإذا كانت المعرفة أعم من العلم حيث إنها تشمله فلا تصادم – إذن – بين العلم والإيمان بل هما طريقان متوازيان نحو الحق والصدق والخير ، فإذا تعاون العلم مع الإيمان فتحا آفاقاً جديدة للمعرفة وتوصلا إلى التغلب على مشاكل الإنسان من فقر وجهل ومرض .

فالتقدم العلمى مطلوب للإنسان إلا أن العلم وحده لا يكفى إن لم يكتمل بالإيمان فالإيمان لا يغنى عن العلم ، والعلم لا يغنى عن الإيمان ، بل هما مدرجان يسمو بهما الإنسان ليرى الكون أنضر وأبهى ، ولولاهما لبقى الإنسان لا يتجاوز الطبيعة والحيوان .

لكن نظرة بعض العلماء الغربيين التى لا تسلم من التعالى والغرور ، قد انحازت – بغير حق – إلى جانب العلم باعتباره غاية فى حد ذاته ، وبذلك أنكرت الإيمان باعتباره شريكاً للثقافة الإنسانية وطبعت مناهج التعليم كلها بالطابع العلمى البحت .

لكن هذه النظرية الضيقة لمفهوم العلم ، قد وجدت لحسن الحظ من العلماء الغربيين من يعارضها ، وفى طليعة هذه الدراسات جاء كتاب « أبانيانو » عن مفارقات التكنيك (التقنية) يتخذ موقفاً معتدلاً فهو لا يضخم جانباً على حساب جانب فلا هو يدعو إلى نبذ التقنية ، ولا هو يغفل « الإنسانيات » ، ولذلك فإنه يرى أنه لا مناص إذن للإنسان من أمرين يتكاملان ولا يتعارضان : أحدهما طبيعته الروحية الأساسية التى لا يجوز التفريط فيها وإلا أضاع نفسه والآلة التى صنعها واستعد للسيطرة عليها ، والآخر الآلة نفسها التى مازالت تفيده وتيسر له الرفاهية بالرغم من مساوئها وليس على الإنسان أن يعتبر تلك الآلة ألد أعدائه ، سواء كان مباشراً أم غير مباشر فى انحلاله الروحى .

إن ربط العلم بالإيمان هو هدف المنهج الإسلامى العظيم ، وقد انتصرت العقلية الإسلامية عندما التزمت بتطبيق هذا المنهج فكراً وعملاً وسلوكاً ، وجعلت أسلوبها فى الحياة الواقعية فى التفكير والإيجابية فى التعبير ، والحركة الدائبة فى كل تصميم وتطوير وعملية النظرة إلى كل شىء فى هذه الدنيا من خلال ربطه بفاطر السماوات والأرض العليم الخبير .

ولقد جانب الصواب الذين يزعمون أن القرآن كتاب دين لا علاقة له بالعلم ، وسواء صدر عنهم هذا الرأى بوعى أو بلا وعى ، فإننا نؤكد على حقيقة أساسية هى أن مصادر العلوم المختلفة موجودة بين ثنايا القرآن الكريم ، إلا أنها تحتاج إلى الباحث المتأمل الذى يستطيع أن يستخرج دررها ، ويضعها فى مواضعها ليستضىء بها ويعمل على ربطها بالفكر والسلوك والتجربة العملية والمعملية .

وكلما أخلص الباحث فى دراسته ، واستقام فى طريق بحثه كلما تكشفت له ينابيع العلوم من الآيات القرآنية والهدى المحمدى .

وواضح من القرآن الكريم أن العلوم الحياتية بخاصة ، والتطبيقية والمعملية بعامة ، لا تحتاج إلى جهد كبير فى الكشف عن مضامينها ، واستيضاح وسائلها وتبيان سماتها الأساسية ... فإذا حظى الباحث بغايته فقد فاز فوزاً عظيماً .

وكلما كان الباحث دارساً لعلم من العلوم ، كلما كان أيسر له من غيره الظفر بما ينشده ، وتتحقق غايته فيما يبغيه من الوصول إلى حقائق وأسرار العلم موضوع البحث .

وسنحاول فى هذه العجالة أن نستخلص على سبيل المثال لا الحصر من بعض آيات الله ومن الهدى النبوى المصادر الأساسية لبعض العلوم والفنون لنؤكد على صدق ما ذكرناه من أن مصادر العلوم المختلفة موجودة بين ثنايا القرآن الكريم .

أولاً : علم التربية :

يقال فى اللغة ربا الشىء أى زاد ، ورباه تربية وترباه ، وكلها بمعنى غذّاه أو نماه وتنطبق على تربية الولد ، كما تنطبق على تربية الزرع وتنميته أيضاً .

ولقد ورد معنى التربية فى القرآن الكريم فى قول عز من قائل :

﴿ وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً ﴾ [الإسراء : ٢٤] .

وواضح من القرآن الكريم أن التربية يمكن أن تكون تربية سليمة كما يمكن أن تكون تربية منحرفة أو سيئة ، فالربا زيادة فى الشىء من الناحية المادية إلا أنه زيادة بلا حق وفيها ظلم شديد ، والأمر كذلك بالنسبة للتربية السيئة وهذا وارد فى قول فرعون موسى :

﴿ ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ [الشعراء : ١٨]

ويرد موسى عليه السلام على منّ فرعون عليه بأنه قد رباه فى بيته عدداً من السنين كما

ورد فى قول عز من قائل :

﴿ وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ﴾ [الشعراء : ٢٢]

فتربية فرعون لموسى كانت تربية خاطئة منحرفة قائمة على الشرك بالله ، إذ ادعى فرعون الألوهية وأمر الناس بعبادته دون الله تعالى فكيف ينشأ طفل نشأة حسنة وهو يربى على الشرك بالله ، وهذا ما دعا موسى عليه السلام أن يرد على دعوى فرعون من أنه قد تعهده صغيراً بقوله : إن تربيته له كانت تربية غير مؤسسة على القيم العليا ومكارم الأخلاق ، إنما كانت تربية قائمة على غرس معانى الشرك والضلال والعدوان والتجبر والتكبر والقسوة والرياء ، ولولا رحمة الله واصطفاء الله له لأثمرت تربية فرعون الفاسدة الفجة السيئة الظلم والفساد فى الأرض .

لقد وقع موسى عليه السلام قبل اصطفائه فى الإثم عندما وكز رجلا فقتله دون داع ، وهم أن يقتل رجلاً آخر ثم هرب من المدينة حتى شملته رحمة الله بعد ذلك فاجتباه وأرسله تعالى بوحى منه ليدعو الناس إلى دين التوحيد .

ولولا رحمة الله لأثرت تربية فرعون فى شخصية موسى تأثيراً سيئاً ، وجعلت منه رجلاً جباراً عتياً فاسداً ومفسداً .

وبحسب نوع التربية فى الطفولة ، ينشأ الطفل وتتكون استعدادات الفرد ليصبح سوياً أو منحرفاً قاسياً أو خانعا ، فبحسب نوع التربية تتكون شخصية الإنسان إذ إن الطفل يحاكى الوالدين أو الولى ويقلد المربين ويتطبع بطباعهم ويسلك سلوكهم فى الغالب ، ولقد ربى الله سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم تربية إلهية كاملة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه :

« أدبنى ربى فأحسن تأديبى »

فالأدب نوع من التربية والتعليم ، وأفضل أنواع الأدب الأدب الربانى إذ إنه المصدر الأساسى لترسيخ القيم الكبرى فى الإنسان واكتساب مكارم الأخلاق وتوجيهه إلى السلوك الصحيح الواجب الاتباع ، وبدونه يفقد الإنسان المعايير التى يحكم بها على الصحيح والفاسد من الأمور والصادق والكاذب من الاعتقادات إذ إن العملية التربوية جد خطيرة فى تكوين شخصية الإنسان لذلك يركز القرآن الكريم على شخصية المربى ويرفعه مكاناً عالياً ، ويفرض على الأبناء حسن معاملة الآباء عندما يقول عز من قائل :

﴿ وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً ﴾ [الاسراء : ٢٣ ، ٢٤]

وتلخص الآيتان العلاقات التى يجب أن تسود جو الأسرة من التراحم والإحسان والوفاء والتسامح والتواضع والتكريم والتوقير وكلها قيم كبرى إذا افتقدت فى الأسرة سادها العدوان والكراهية والبغضاء وفسدت العلاقات الاجتماعية بين الآباء والأبناء .

وتسود المجتمعات الغربية الآن بعض فلسفات التربية التى تقوم على مبدأ الحرية الشخصية دون تقيد بالمعايير والقيم التى ذكرناها ، لذلك نجد الأبناء لا يوقرون آباءهم ولا يحترمون ذويهم وعندما يكبر الأبوان يودعان أحد الملاجىء وربما لا يزورهم الأبناء ولا يهتمون بهم من قريب أو بعيد ، وكأن لم تكن هناك علاقة بينهما وبذلك يضيع التراحم وتفتقد المحبة ويغلب على جو الأسرة الأثرة والقسوة وعدم الوفاء .

ولا يمكن أن نجد أصولاً للتربية القويمة والآداب الرفيعة التى ترسم فيها النشأة الاجتماعية أفضل مما نجده فى ثنايا القرآن الكريم والهدى النبوى .

ويرسم لنا الرسول صلى الله عليه وسلم العلاقة التى يجب أن تقوم بين الأبناء والآباء ويبين لنا السلوك العملى الواجب الاتباع .

جاء رجل إلى رسول الله ليستأذنه فى الجهاد فقال صلى الله عليه وسلم[٤]: أحى والداك ؟

فقال : نعم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ففيهما فجاهد ....

ومن هذا يتضح أن التربية الإسلامية تقوم على أسس من التراحم والتعاطف والوفاء للوالدين حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم قدم رعاية الوالدين على الجهاد فى سبيل الله .

جاء رجل إلى الرسول فقال : يا رسول الله من أحق بحسن صحابتى ؟ قال : أمك قال : ثم من؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أبوك[٥] .

ونحتاج للإفاضة فى تبيان منهج وخصائص وسمات وغايات التربية الإسلامية العديد من الكتب والمؤلفات حيث إن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية زاخرة بكل ما يحتاج إليه المرء من أساليب تربوية وسلوك أخلاق وأسس للتنشئة الاجتماعية والأخلاقية[٦] .

ثانياً : علم الأخلاق :

الخلق هو السجية ويقال فلان يتخلق بغير خلقه أى يتكلف غير أخلاقه وقد بين الله تعالى فى كتابه العزيز أن الأخلاق إما أن تكون حسنة أو سيئة ، ويمكن للإنسان فى النظرة الإسلامية أن يغير من أخلاقه وأن يحسن منها ، وهذا وارد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« حسنوا من أخلاقكم » .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

« حسن الملكة يمن وسوء الخلق شؤم »(٧) .

ويبين الله سبحانه وتعالى الأخلاق الحسنة التى كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصف أخلاقه :

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [القلم : ٤]

كما يبين الله سبحانه وتعالى أصحاب الأخلاق السيئة التى هى طبع ملازم لهم وصفة من صفاتهم ويمهلهم فى الدنيا إلا أنه تعالى يتوعدهم فى الآخرة :

﴿ فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ [التوبة : ٦٩]

وظاهر أن الأخلاق المرذولة هى ثمرة للرياء والنفاق والاغترار والعجب والحقد والحسد وأن على رأس سوء الخلق الشرك الأكبر إذ هو دليل على ظلم النفس ووقوعها فى ضلال مبين .

وفى المجتمعات الحديثة تعبد بعضها المادة ، وتفلسف بعضها أخلاقها على أساس القوة وتحدد غايتها فى المنفعة أو فى أخلاق الأنانية واللذة وعبادة الدرهم والدينار ، ولقد كثرت المذاهب اللاأخلاقية التى تدعو إلى فلسفات اللذة كما نجدها عند بنثام والفلسفة البرجماتية التى تزعمها وليم جميس والتى تؤمن بالمنفعة الشخصية والمصلحة الذاتية فحسب .

ولقد ذكر القرآن فحوى هذه المذاهب اللاأخلاقية قبل أن توجد بألف وأربعمائة سنة وبين تهافت دعاويها وعقم مزاعمها وضرب الأمثلة بأصحاب هذه الأخلاق المرذولة مثل قارون الذى جمع مالاً وعدده وقال :

﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ [القصص : ٧٨] .

كما ذكر الله تعالى قصة صاحب الجنتين الذى ظن أن ما أنعم الله به عليه لن يبيد أبدا أو أنه إذا رجع لربه فسيجد خيراً مما عنده ، ونسى أن الله تعالى لا ينعم إلا على القوم الأتقياء المؤمنين :

﴿ وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ [الكهف : ٤٢] .

يعالج إذن القرآن الكريم كما يعالج الهدى النبوى موضوع الأخلاق المحموده منها والمرذولة ، ويبين دعاوى الذين يستمتعون بأخلاقهم السيئة فى حياتهم الدنيا ، ويبين أن ذلك لفترة مؤقتة فى الحياة الدنيا وأما فى الآخرة فليس لهم فيها نصيب .

ويؤكد الرسول على الشقاوة والتعاسة التى يعيش فيها عباد الشهوات واللذات والأموال فيقول صلى الله عليه وسلم :

« تعس عبد الدرهم » .

ويتبين من الآيات القرآنية والهدى النبوى أن الإسلام وضع المنهج الأخلاقى الواجب الاتباع فى الحياة الدنيا ، وأنه ترسم للإنسان سبل الحق للفوز بالأمن والسعادة فى الآخرة وذلك بحسن الخلق والتمسك بمكارم الأخلاق والاقتداء بالرسول الكريم والبعد عن البغضاء والعدوان .

وهذه المصادر الأخلاقية لا تحتاج منا إلى التفلسف والجدل والحجاج فهى مناهج أخلاقية ظاهرة للعيان تَجُبُّ كل النظريات الأخلاقية القديم منها والحديث ، وتتفوق على النظريات البشرية والمذاهب الإنسانية التى تتغير فى كل زمان ومكان فتجعل ما كان بالأمس القريب محرما حلالا طيبا ، وما كان غير مقبول قديما معقولا مقبولا .

ثالثاً : التشريــع :

يحدد الله فى محكم آياته دستور الأمة ومنهجها وشرعتها الواجب على المسلمين العمل به فى الحياة الدنيا ، ولا يمكن الاعتداد بالقول بأن القرآن الكريم والسنة المحمدية غير كافيين للتطبيق فى الحالات الجزئية وفى الظروف البيئية المختلفة .

﴿ أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ﴾ [الأنعام : ١١٤]

﴿ شرع لكم الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ﴾ [الشورى : ١٣]

فلله الحكم وغير حكمه تعالى لا يعول عليه ولا يعتد به لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ،

فإذا قاد الإنسان غرور عقله وحاول أن يقنن من عندياته نظم الحكم وصاغ قوانين وضعية ليتطاول بها على حكم الله ، فإن حكم الله هو النافذ ، وإن أمهل الذين خرجوا عن حكمه تعالى فى الدنيا ، فإنه سيحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا يعملون .

يأمر الله تعالى حكام المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يطبقوا حكمه لأنه يمثل كمال العدل ومقتضى الرحمة ويحل ما يعن لهم فى الدنيا من قضايا ومشكلات وما يشجر بينهم من خلافات وخصومات يقول تعالى :

﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ [المائدة : ٥٠]

﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ [التين : ٨]

ونظام الحكم فى الإسلام يستند إلى قاعدة الشورى :

﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ [الشورى : ٣٨] ، ﴿وشاورهم فى الأمر﴾ [آل عمران : ١٥٩]

ويختلف نظام الشورى الإسلامى عن النظامين الديمقراطى والاشتراكى ، إذ إن النظام الإسلامى يخضع الشورى لأهل الحل والعقد أى العلماء المتخصصين فى كل فرع من فروع المعرفة إذ هم وحدهم الذين يستطيعون – بناء على الكتاب والسنة – أن يفتوا فى حل القضايا والمشكلات التى تهم الأمة الإسلامية ويأخذوا بسفينتها إلى بر الأمان .

يقول تعالى :

﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ﴾ [الجاثية : ١٨]

أما فى النظام الديمقراطى ، فإن القوانين والنظم تستن بحسب رأى الأغلبية ، من عامة الناس وخاصتهم وربما غلبت عليهم الأهواء وتحيزوا لآرائهم الخاطئة فيظلمون أنفسهم ويظلمون الناس .

أما فى النظام الاشتراكى ، فإنما ترتكز قوانينه على حكم العامة من الناس وهم طبقة العمال والفلاحين وهم غير متخصصين فى العلوم المختلفة ، الأمر الذى يجعل حفنة قليلة من الحكام هى وحدها التى تقنن القواعد القانونية وتضع النظم حسب مزاجها لتوطد بها كراسيها فى الحكم .

إذا كان هناك بعض التشابه بين النظام الإسلامى والنظام الديمقراطى والاشتراكى ، إلا أن هناك اختلافاً جوهرياً عميقاً بين النظام الإسلامى والنظامين الآخرين .

إذ إن التشريع الإسلامى قد وضعه فاطر السموات والأرض الذى لا تبديل لكلماته ولا تحويل لسنته ولا تغيير لشرعته ، فإذا قرر التشريع الإسلامى أن الزنا بكل صوره يعد من الفواحش ،لذلك يتوجب إقامة الحد على فاعله ، فإن أى حاكم إسلامى لا يستطيع أن يبدل هذا الحكم ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالربا وقتل النفس بغير حق وقطع الطريق والسرقة .

لكن نجد بعض المجتمعات فى « الدول الديمقراطية والاشتراكية » تغير قوانينها وتبدل وتعدل بنودها وتضع تقنينات جديدة ، تجعل ما كان بالأمس محظوراً من المباحات ، وما كان بالأمس القريب مباحاً جريمة يعاقب عليها القانون .

ففى بعض الدول الديمقراطية تخفف عقوبة قاتل النفس بغير حق من الإعدام إلى إيداعه إحدى المصحات العلاجية بدعوى أنه ما ارتكب هذه الجريمة إلا فى ظروف نفسية مرضية ، ويزعم أصحاب الديمقراطية أن الحرية الشخصية الفردية هى المنطق الأساسى الذى به يقنن القوانين وقد أثمرت هذه الحرية الفوضوية قواعد قانونية تبيح العلاقات غير المشروعة ليس بين الجنسين فحسب بل أيضاً بالنسبة للجنس الواحد ، فأشاعت هذه القوانين الانحلال الخلقى ونشرت الفساد والإفساد فى الأرض لذلك فإن القواعد الأساسية فى حكم الله يجب ألا تمس فى أى زمان أو مكان ومهما كانت الظروف والملابسات :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ [المائدة : ٤٧]

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ [المائدة : ٤٥]

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [المائدة : ٤٤]

فالمؤمن المسلم يدعو لحكم الله وحكم الرسول الذى أرسله الله تعالى نبياً ورسولاً وحكماً ، وهو لا ينطق عن الهوى إنما بوحى من الله وعلم من لدنه تعالى :

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ [النور : ٥١]

وليست قواعد القرآن جامدة كما يتقول بعض الخاطئين فى الإسلام والحاقدين عليه ، بل على النقيض من ذلك تماماً إذ إن قواعد القرآن مرنة وصالحة للتطبيق تمتد لتشمل الناس جميعاً فى جميع الظروف والأمكنة والأزمان ، إذ هى تتميز بقابليتها للتطبيق وتترك لأهل الحل والعقد الإفتاء والاجتهاد فيما لم ينص عليه صراحة بحسب مصلحة المسلمين ، لكن ذلك فيما يختص بالجزئيات والفروع أما الأصول فلا اجتهاد فيها ولا تعديل أو تغيير .

ومن هذا يتضح أن المصدرين الأولين لدستور الأمة ومنهجها وشرعتها هما القرآن الكريم والسنة ولا مجال بعد ذلك للقول بأن قواعد القرآن عامة وأن السنة النبوية دخلت فيها أحاديث موضوعة أو مكذوبة .

* * *

الهوامش

(١) تراث الإنسانية ، مجلد ٣ (ص ٤٩٠ - ٤٩٢) .

(٢) العلم والإيمان فى الإسلام . دراسات بالقيروان ١٩٧٦ - وزارة الشئون الثقافية - تونس .

(٣) راجع العلم والإيمان فى الإسلام - دراسات فى ندوة المولد النبوى بالقيروان عام ١٩٧٦ وبحث (ص ٣١) .

(٤) ذكره البخارى والحديث عن عبد الله بن عمر .

(٥) حديث أبى هريرة وذكره الشيخان فى « اللؤلؤ والمرجان » .

(٦) للمزيد الرجوع إلى كتابى المؤلف ١ - نحو تربية إسلامية . ٢ - نحو الأخلاق الإسلامية .

(٧) ابن عساكر والسيوطى فى الجامع .

* * *